مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 3 / 16 /06/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

مساهمات أبناء زيري في الأحداث الواقعة في الأندلس من لدن الدولة العامرية إلى قيام دول الطوائف

Bani Ziri's contributions to Andalusian events, from the Ameriyya state to the establishment of the tawyif states

برحو بوسيف Berraho Boucif berbouc@yahoo.fr	تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي	مختبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية جامعة ابن خلدون تيارت

DOI : 10.46315/1714-010-003-038

الإرسال: 2020/06/30 **القبول**: 2020/11/03 **النشر**: 2021/06/16

ملخص: دخل أبناء زيري إلى الأندلس في زمن الدولة العامرية مع اختلاف بسيط حول ما إذا كان دخولهم في أول عهد الدولة أم في آخره ولقد كان لهم أثر بالغ في الأحداث التي جرت هناك فقد تزامن دخولهم مع ضعف الخلافة، مما أدى إلى قيام الاضطرابات التي كان لأبناء زيري نصيب فيها .

فلقد شاركوا مع الدولة العامرية في حروبها التي كانت تشنها ضد أعدائها كما شاركوا بعد ذلك في الفتنة البربرية التي كان من نتائجها تقسيم الأندلس إلى إمارات صغيرة عرفت باسم دول الطوائف قامت على التناحر فيما بينها، ما عجل بسقوط الخلافة الأموية وذلك في سنة 422 هـ.

الكلمات المفتاحية: الأندلس – بنو زيري – الفتنة البربرية – الدولة الزيرية – غرناطة

Abstact : Bani Ziri entered Al-Andalus in the time of the Amiriyah state with little disagree

ent about whether their entry was at the beginning of the state's era or at the end of it, and they had a profound impact on the events that took place there.

They participated with the Ameri state in the wars that were waged against its enemies, as they then participated in the barbaric strife that was one of the results of the division of Andalusia into small principalities known as the countries of the sects based on rivalry among them, which precipitated the fall of the Umayyad Caliphate in the year 422 AH.

Keywords: Andalus- Bani Ziri- Barbarian strife- Zirid state- Granada.

مقدمة:

تعددت الأسباب التي جعلت من بلاد الأندلس وجهة لكثير من المسلمين، من أهل المغرب والمشرق، فقد استطاع أمراؤها المسلمون أن يجعلوا منها حاضرة علمية وثقافية، يُشَدُّ إليها الرحال، ووجهة للعلماء وطلبة العلم، كما أن الأخبار عن حسنها وبهائها ورغد العيش بها جعل منها وجهة لكل من ضاقت به بلاده، وباعتبار موقعها بمحاذاة الممالك النصرانية التي كانت في حرب لا تنته معها، وهو ما جعلها دائما في حاجة

إلى عناصر جديدة لتدعيم الجيوش المرابطة في الثغور وهو أيضا ما جعل منها وجهة لكل من ابتغى الجهاد ضد النصارى سعيا خلف الشهادة في سبيل الله، أو النصر وإحراز فتوحات قد يكون له منها نصيب.

ولقد ضاقت بلاد المغرب الأوسط بأبناء زيري حتى استعجلوا بالرحيل وعبروا إلى العدوة الأندلسية ليكونوا في ركاب صاحب الدولة العامرية، وقد اتفقت مصلحتهم مع مصلحة صاحب الدولة فهم كانوا يطلبون النجاة بأنفسهم ومكانا يأمنون فيه على أرواحهم، وأبنائهم وأموالهم، وهو كان يرمي من وراء استقبالهم إلى الاستعانة بهم في حروبه الداخلية والخارجية، وهو الخبير ببأسهم وجلدهم وقوة شكيمتهم.

وعليه يمكننا طرح بعض الإشكاليات، منها ما يتعلق بالتعريف بأعلام هذه الأسرة، وما هي مساهمات كل واحد منهم في الأحداث الواقعة في الأندلس في تلك الحقبة من التاريخ؟ ثم ماهي الآثار التي خلفها التواجد الزيري على الأراضي الأندلسية منذ نزولهم بها إلى آخر عهدهم هناك؟

ومن بعض الدارسات التي تناولت هذا الموضوع أو جانبا من جوانبه، أذكر ما ألفته مريم قاسم الطويل تحت عنوان مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، وتتحدث فيه عن تاريخ بني زيري في الأندلس. و كتاب دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان، وفيه يتناول بعضا من جوانب الموضوع، أيضا تجدر الإشارة إلى ما ألفه الدكتور بوبابة عبد القادر تحت عنوان البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري، وهو عبارة عن أطروحة دكتوراه ويشير في مقدمته إلى أن الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع قليلة جدا سواء المشرقية أو المغربية، ويذكر بعض الدراسات التي تناولت جانبا من الموضوع ومنها رسالة ماجستير لعبد العزيز فيلالي بعنوان العلاقات السياسية بين الدولة الاموية في الاندلس ودول المغرب، وما تقدم به فراد محمد أرزقي في رسالته للماجستير بعنوان القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف.

ولقد اعتمدت على المنهج السردي لما ارتأيت من ضرورته، حيث أوردت الأخبار كما نقلها المؤرخون إلينا.

1. أعلام الأسرة الزيرية في الأندلس:

1.1 زاوي ابن زيري:

قال عنه ابن خلدون: «كان عميد صنهاجة في الفتنة البربرية أجاز إلى الأندلس على عهد المنصور، فلما هاجت الفتنة البربرية، وانحل نظام الخلافة، كان فحل ذلك الشول وكبش تلك الكتائب، وعمد إلى البيرة، ونزل غرناطة واتخذها دارا لملكه، ولما بايع الموالي العامريّون للمرتضى المرواني عمد إلى غرناطة فلقيهم زاوي بن زيري في جموع صنهاجة، وهزمهم سنة عشرين وأربعمائة وقتل المرتضى، وأصاب زاوي من ذخائرهم وأموالهم وعددهم ما لم يقتنه ملك ثم وقع في نفسه سوء آثار البربر بالأندلس أيام هذه الفتنة وحذّر مغبة ذلك فارتحل إلى سلطان قومه بالقيروان» (ابن خلدون، ع، 1998، صفحة 201)

وقال عنه أبو الحسن المغربي الأندلسي في كتابه (المغرب في حلى المغرب):«كَانَ داهية البربر خرب أَصْحَابه مَدِينَة إلبيرة، وعاثوا فِيهَا وَأظْهر هُوَ الْإِنْكَار لذَلِك وَالعدل، وَقَامَ بالمملكة، واقتعد مَدِينَة غرناطة، وَهزمَ المرتضى المرواني وَعظم قدره ثمَّ خَافَ الكرة من أهل الأندلس، فَرَحل بِمَا حازه من الذَّخَائِر الْعَظِيمَة إِلَى إفريقية وَبَقِي بغرناطة ابْن أَخِيه». (ابن سعيد،أ، 1995، صفحة 415)

والظاهر أن تاريخ بني زيري في الأندلس، وكل ما حصل لهم من نعيم و ملك فيها، كان بعد الله بسبب حنكة وإقدام وبسالة هذا الرجل زاوي ابن زيري، وبرغم ذلك وبرغم ما حققه من إنجازات وانتصارات، إلا أنه اتخذ قراره بمغادرة الأندلس والرجوع إلى بلاد المغرب مرة ثانية ليكمل بقية حياته بجوار إخوته وأبناء عمومته .

وفي ذلك يقول ابن عذاري «وفي سنة 410، وصل زاوي بن زيري الصنهاجي من الأندلس إلى أفريقية في أهله وولده وحشمه، بعد أن اغترب بها اثنين وعشرين سنة، وقاسى حروبها وفتنها واحتوى على نعم ملوكها وذخائرهم.» (ابن عذاري، م، 1983، صفحة 269)

وعن سبب قرار زاوي بالرحيل يخبرنا ابن بسام الشنتريني نقلا عن ابن حيان ما نصه: « ... وذلك أنه لما انهزم المرتضى قال زاوي لقومه: كيف رأيتم ما قد خلصنا منه - قالوا: عظيما، قال: فلا تتناسوه وتغالطوا أنفسكم بعده، وقد نجانا الله منهم برحمته، ولست آمن عودهم جملة إليكم فيما بعد، وها أنا قد أديت لكم النصيحة وأنا راحل عن الأندلس، فمن أطاعني فليرحل معي. فلم يساعده أحد فرحل...» (ابن بسام، ش، 1981، صفحة 459)

2.1 حباسة :

يقول عنه محمد عبد الله عنان: كان حباسة بن ماكسن من أشجع قادة البربر، كان مقتله في آخر ذي الحجة سنة 402 هـ، حين تقدم جماعة من وجوه البربر وفي مقدمتهم حباسة ومعه جماعة قليلة من الفرسان، ونزلوا في بقعة قريبة من الأسوار، فرآهم أهل قرطبة من وراء الخندق، فاجتمع منهم عدد عظيم، وانقضوا على حباسة وصحبه فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيماً، ولكنهم غلبوا في النهاية على أمرهم، وأسر حباسة، فلما عرفه القوم قتلوه بوحشية وقطعوا جسده إرباً لعظيم حقدهم عليه، ولما قاسوه من شدة قتاله ونكايته. (عنان،ع، 1997، صفحة 652)

ويقول عنه لسان الدين ابن الخطيب : كان شهما هيّبا، كريما في قومه، أبيّا في نفسه، صدرا من صدور صنهاجة وكان أشجع من أخيه حبّوس كانت وفاته في شوّال عام اثنين وأربعمائة، حين استلحم وهو فارس صنهاجة وفتاها، رمى بنفسه على طلّابها لا يعرض له شيء إلّا حطّه، إلى أن مال به سرجه، فأتيح حمامه لاشتغاله بذلك، بطعنة من يد المسمّى النّبيه النصراني، أحد فرسان الموالي العامريين، فسقط لفيه، وانتظمته رماح الموالي فأبادته، وغلب عليه الموالي فاحتزّوا رأسه وعجّلوا به إلى قصر السلطان، وأسلموا جسده للعامّة فركبوه بكل عظيمة، وانجلت الحروب في هذا اليوم لمصابه، عن أمر عظيم، وبلغ من جميع البرابرة الحزن عليه مناله، ورأت أن دماء أهل قرطبة جميعا لا تعدله. (ابن الخطيب، ل، 1973، صفحة 486،487)

3.1 حبوس بن ماكسن:

على إثر ارتحال زاوي سعى الفقيه ابن أبي زمنين قاضي غرناطة، في أن يعين لولايتها حبوس بن ماكسن ابن أخ زيري فلحق به في حصن أشتر [لا يوجد تعريف لهذا الحصن في معظم كتب الجغرافيا] على مقربة من وادي آش[مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة كبيرة خطيرة تطرد حولها المياه والأنهار، ولها

بابان شرقي على النهر وغربي على خندق وقصبتها مشرفة عليها، وعليها سور حجارة. (الحميري، أ، 1980، صفحة 604)]، وكان يرابط هنالك مترقباً رحيل عمه فبادر بالسير إلى غرناطة ودخلها في موكبه وطبوله، واحتلها فلم يعارضه أحد من قومه، وتربع في رياستها من وقته. وقيل إن عمه زاوي اختاره ليخلفه قبل رحيله. وقيل من جهة أخرى إن نزاعاً حدث بسبب ذلك، بينه وبين ابن عمه جلالي بن زاوي ولكنه انتهى برحيل جلالي ولحاقه بأبيه، وخلصت له الرياسة، ومن ذلك الحين تبدأ بغرناطة دولة بني زيري بن مناد. (عنان،ع، 1997، صفحة 126)

حكم غرناطة في سنة 411 هـ وكان حسن التدبير والسياسية، نعمت غرناطة في عهده بنوع من الهدوء والاستقرار واتسعت رقعة الدولة، واهتم بعمارة مدينة غرناطة، حتى مكّن لبني مناد ملكاً قوياً راسخاً، وكانت سياسته تقوم على مصادقة جيرانه من زعماء البربر والتحالف مع هذه القوى ضد بني عباد حكام إشبيلية. توفي حبوس سنة 428 هـ. (السامرائي، وآخ، 2000، صفحة 234،235)

وكان على قسوته يصغي إلى الأدب، وينتمي في العرب، للأثر المقفو في قومه صنهاجة. وكان يؤثر لذلك " كتاب التيجان " لابن دريد في ذكر مناقبهم، ولا يغب سماعه ومطالعته، وكان وقورا حليما، فظا مهيبا، نزر الكلام قليل الضحك كثير الفكر، شديد الغضب، غليظ العقاب، شجاعا حسن الفروسية، جبارا متكبرا داهية، واسع الحيلة كامل الرجولية. (ابن بسام، ش، 1981، صفحة 461)

حشد الجند ونظم الجيش، وكان يشرك بني عمه في الرأي، ويجري في حكمه على طريق الشورى، ووطد حبوس ملك قومه بغرناطة، وأقام له بلاطاً فخماً، وعقد علائق المودة والتحالف مع سائر جيرانه من رؤساء البربر وفي مقدمتهم بني حمود أصحاب مالقة، وعقد الصداقة أيضاً مع زهير الفتى العامري صاحب ألمرية، وفي عام (428 هـ) توفي حبوس بن ماكسن، وخلفه في حكم غرناطة ولده باديس. (عنان،ع، 1997، صفحة 126)

4.1 باديس بن حبوس:

وَكَانَ من أبطال الحروب وشجعانها يضْرب بِهِ الْمثل فِي شدَّة الْقَسْوَة وسفك الدِّمَاء، وَعظم ملكه بهزيمة زُهَيْر ملك ألمرية وَقَتله له، وَكَانَ على مَا فِيهِ من الْقَسْوَة حسن السياسة منصفا حَتَّى من أَقَاربه . (ابن سعيد،أ، 1995، صفحة 107)

لم يعرف له منازع على الملك إلا ابن عمه يدّير بن حُباسة وكان لباديس كاتب من اليهود هو إبراهيم ابن نغرالة ولما دبر القوم مؤامرتهم لانتزاع السلطة من باديس، وإجلاس يدير مكانه لجأوا إلى أبي إبراهيم، وحاولوا ضمه إليهم فتظاهر بالقبول وأخطر مولاه باديس ودبر اجتماعهم بمنزله، وحضور باديس ليسمع بنفسه مشاوراتهم من مكان معين وكان المتآمرون قد اعتزموا أمرهم لقتل باديس، أثناء تنزهه، وكان ممن رشوه لذلك شيخ من صنهاجة يدعى فرقان فأفضى بالأمر لباديس وحذره في الوقت المناسب، وعلم المتآمرون بافتضاح تدبيرهم، ففروا إلى خارج غرناطة. (عنان،ع، 1997، صفحة 127،128)

قال فيه الفتح بن خاقان: «...كان باديس بن حبوس بغرناطة عاثياً في فريقه، عادلاً عن سنن العدل وطريقه يجتري على الله غير مراقب، ويجري إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب، قد حجب سنانه لسانه، وسبقت إساءته إحسانه ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم، ولا شرب الماء إلا من قليب دم، احزم من كاد ومكر، وأجرم من راح وابتكر ومازال متقداً في مناحيه، مفتقداً لنواحيه، لا يرام بريث ولا عجل، ولا يبيت له جار إلا على وجل إلى أن وكل أمره إلى أحد اليهود واستكفاه، وجرى في ميدان لهوه حتى استوفاه، وأمره أضيع من مصباح الصباح، وهمه في غبوق واصطباح وبلاده مراد للفاتك، وستره في يد الهاتك». (ابن خاقان، ف، 1989، صفحة 80،81)

وامتدت مملكة باديس من بسطة [(مدينة بالأندلس بالقرب من وادي آش، وبينها وبين جيان ثلاث مراحل، وهي من كور جيان. (الحميري، أ، 1980، صفحة 45)] شرقاً حتى إستجة [(كورة بالأندلس متصلة بأعمال ريّة بين القبلة والمغرب من قرطبة، وهي كورة قديمة واسعة الرساتيق والأراضي على نهر سنجل، وهو نهر غرناطة، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة (الحموي، ي، 1995، صفحة 174)] ورندة غرباً [(مدينة حصينة بأرض الأندلس من أعمال تاكرنا قديماً. استجلب إليها المياه من ناحية المشرق وناحية المغرب فتوافي المياه داخلها، بها نهر رندة، ونهر البرادة. (القزويني،ز،، صفحة 532)]، وبياسة [(مدينة كبيرة بالأندلس معدودة في كورة جيّان، بينها وبين أبّدة فرسخان وزعفرانها هو المشهور في بلاد الغرب، دخلها الروم سنة 542، وأخرجوا عنها سنة 552. (الحموي، ي، 1995، صفحة 518)] وجيان شمالا حتى البحر جنوباً، وباديس هو الذي مصّر مدينة غرناطة، وغدت منذ عهده من أهم قواعد الأندلس الجنوبية، وأنشأ قصبة غرناطة فوق أنقاض قلعتها القديمة، وسميت باسمها القديم " القلعة الحمراء " وأقام داخل القصبة قصره ومسجده الذي دفن فيه وأنشأ سوراً ضخماً حول الربوة التي تقع عليها القصبة وأنشأ قصبة مالقة المنيعة، التي ما زالت آثارها باقية إلى اليوم وأنشأ له جيشاً قوياً مرابطاً من قومه صنهاجة وغيرهم، وبذل له المال الوفير، ووطد الدولة، ونظم مراتبها وعمالاتها. بيد أن بلاطه لم يسطع كما سطعت قصور ملوك الطوائف الأخرى، ولم يجتمع حوله الكتاب والشعراء كما اجتمعوا في قصور الطوائف الأخرى، ذلك أن بلاط غرناطة البربري، لبث محتفظاً بطابع البداوة والخشونة، الذي كان يغلب على دولة آل زيري، ولم تعرف دولتهم تلك الخواص الحضارية والأدبية الرفيعة، التي امتازت بها دول الطوائف الأخرى. (عنان،ع، 1997، صفحة 139،140)

5.1 عبد الله بن بلقّين بن باديس:

لقبه المظفّر بالله، الناصر لدين الله. ولي بعد جدّه باديس في شوال سنة خمس وستين وأربعمائة، وصحبه سماجة الصّنهاجي تسع سنين، وكان قد حاز حظّا وافرا من البلاغة والمعرفة، شاعرا جيّد الشعر، مطبوعه، حسن الخطّ، كانت بغرناطة ربعة مصحف بخطّه في نهاية الصّنعة والإتقان. (ابن الخطيب، ل، 1973، صفحة 289)

وأبوه هو بلقين بن باديس الملقب بسيف الدولة كان أبوه قد تنازل له عن ملك مالقة، ورشحه للحكم من بعده لولا الأجل باغته في حياة أبيه، وهذا كان سببا في انتقال ولاية العهد منه الى ابنه عبد الله بن بلقين.

والسبب في وفاته أنه كان ينظر إلى استئثار الوزير اليهودي ابن نغرالة بزمام الأمور في عهد أبيه باديس، وكان بلقين مع بغضه ليوسف، يبدي له المودة ويتردد على داره ويشاطره الشراب، وكان منهمكاً مدمناً. فاعتزم يوسف أن يتخلص من بلقين ودس له السم في كأسه، فما كاد يغادر مجلسه حتى ملكه قيء شديد، وما كاد يصل إلى داره، حتى لزم فراشه، ثم توفي بعد يومين. (عنان،ع، 1997، صفحة 411)

ولما توفي باديس المظفر بالله، اتفق رجال الدولة وشيوخ صنهاجة على تولية حفيده عبد الله بن بُلُقِّين مكانه، وكان صبياً حدثاً. وكان أخوه الأكبر تميماً يتولى حكم مالقة منذ أيام جده، أما ماكسن ولد باديس، فقد كان خارجاً على أبيه حسبما يذكره المؤرخون، وكان قد عاد إلى مدينة جيان، وامتنع بها، وكان سيء الخلال والسيرة، فلم يلتفت إليه، ولم يقم أحد بدعوته، وتولى تدبير الدولة ورعاية الملك الصبي، الوزير سماجة أحد شيوخ صنهاجة، وكان هذا الوزير رجلا حازماً قوي العزم، شديد السطوة، مرهوب الجانب، فضبط الدولة، واستأثر بالسلطة، وأحسن السيرة. (عنان،ع، 1997، صفحة 142)

وعن بعض صفات الأمير عبد الله بن بلقين وخلاله التي عرف بها يخبرنا ابن الخطيب نقلا عن ابن الصيرفي يقول: كان جبانا مغمد السيف، قلقا، لا يثبت على الظّهر، عزهاة لا أرب له في النساء، هيّابة، مفرط الجزع، يخلد إلى الرّاحات، ويستوزر الأغمار. (ابن الخطيب، ل، 1973، صفحة 290)

وفي عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة، تحرّك أمير المسلمين، يوسف بن تاشفين لخلع رؤساء الأندلس، فأجاز البحر ويمّم قرطبة، وفي ليلة الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب، اجتمع إلى حفيد باديس صنائعه، فخوّفوه من عاقبة التربّص وحملوه على الخروج إليه، فركب وركبت أمّه ولقي أمير المسلمين على فرسخين من المدينة فترجّل وسأله العفو، فعفا عنه. (ابن الخطيب، ل، 1973، صفحة 289)

وأخذ عبد الله وأهله أولا إلى الجزيرة الخضراء، ثم نقلوا إلى سبتة، فمكناسة وأخذوا أخيراً إلى مدينة أغمات [(ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مرّاكش، وهي مدينتان متقابلتان وأهلها فرقتان يقال لإحداهما الموسوية من أصحاب ابن ورصند، والغالب عليهم جفاء الطّبع وعدم الرّقّة، والفرقة الأخرى مالكية حشوية، وبينهما القتال الدائم وبين مدينة أغمات ومرّاكش ثلاثة فراسخ. (الحموي، ي، 1995، صفحة 225)]، وأنزلوا هنالك داراً حسنة وعوملوا برفق ورعاية وعاش عبد الله بأغمات حتى توفي. وكتب فيها مذكراته الموسومة بكتاب " التبيان "، وعفا أمير المسلمين فيما بعد عن أخيه تميم. (عنان،ع، 1997، صفحة 342)

وحلّ اعتقالهما، ورفّه عنهما، وأجري المرتّب والمساهمة عليهما. وأحسن عبد الله أداء الطاعة، مع لين الكلمة فقضيت مآربه، ورزق الولد في الخمول، فعاش له ابنان وبنت، جمع لهم المال، فلمّا توفي ترك مالا جمّا. (ابن الخطيب، ل، 1973، صفحة 291).

2. آثار التواجد الزيري في الأندلس:

1.2 تعزيز قوة الحاجب واستنهاض همم الأندلسيين للجهاد:

يخبرنا الأمير عبد الله بن بلكين أن الحاجب المنصور لما خاف من تغير جنده عليه إذا ما أمرهم بما يكرهوه تفطن إلى أن يكون جنده من قبائل مختلفة، فإن خرج بعضهم على الطاعة، غلبه بالفئات الأخرى، ولذلك استجلب إليه من رؤساء القبائل البربرية المختلفة، من المشهود لهم بالجلد وقوة الشكيمة والصبر على المكاره، وكان على رأس هؤلاء أبناء زيري، وإليهم كان الرأي والمشورة والحكم على من دونهم من الأجناد. (ابن بلكين، ع، 2006، صفحة 31)

أما ابن الأثير فيخبرنا أن أبناء زيري حين سألوا المنصور الإذن لهم الجهاد أجابهم وأمدهم بالخيل والسلاح والأموال، فأتوا أرض جليقية، فدخلوها ليلا فقتلوا خلقا كثيرا وغنموا دوابهم وسلاحهم وعادوا إلى قرطبة، فعظم ذلك عند ابن أبي عامر، ورأى من شجاعتهم ما لم يره من جند الأندلس فأحسن إليهم وجعلهم بطانته ولما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة حسدوهم، ورغبوا في الجهاد وقالوا للمنصور بن أبي عامر: قد نشطنا هؤلاء للغزو فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الأقطار، وخرج إلى الجهاد، فخرج إلى ليون ونازلها وهي من أعظم مدائنهم، واستمد أهلها الفرنج فأمدوهم بجيوش كثيرة، واقتتلوا ليلا ونهارا، فكثر القتل فيهم وصبرت صنهاجة صبرا عظيما، وحمل المسلمون على النصارى، فانهزموا إلى بلادهم وقتل منهم ما لا يحصى (وَمَلَكَ الْمَدِينَةَ). (ابن الأثير, أ، 1997، صفحة 176).

وقد كان إذن المنصور لزيري وقومه، وهم من صنهاجة ألد خصوم الدعوة المروانية والدولة العامرية، بالجواز إلى الأندلس، عملا من أعمال السياسة المستنيرة، وكان غنماً مادياً وأدبياً للدولة العامرية. (عنان،ع، 1997، صفحة 122)

2.2 المساهمة في نشوب الفتنة البربرية :

يعتبر مُحَمَّد بن هِشَام بن عبد الْجَبَّار ابْن النَّاصِر لدين الله الْأَمَوِي هُوَ أول من فتح على بني أُمَيَّة بالمغرب بَاب الْفِتْنَة، حين توثب على الْأَمر بالأندلس، وخلع الْمُؤَيد بِاللَّه هشاما، وَحَارب عبد الرَّحْمَن الْحَاجِب ابْن أبي عَامر حتى تمكن منه وقتله، فذلت لَهُ الوزراء والصقالبة وَجَاءُوا وَبايعوه، وَأمر بِنَهْب دور بني عَامر وانتهب جَمِيع مَا فِي الزهراء من الْأَمْوَال وَالسِّلَاح حَتَّى قلعت الْأَبْوَاب، وخطب لَهُ بالخلافة بقرطبة وَتسَمى بالمهدي وَقطعت دَعْوَة الْمُؤَيد وَصلى الْجُمُعَة بِالنَّاسِ . (الصفدي, ص، 2000، صفحة 108)

وقد تربع محمد بن هشام المهدي على كرسي الخلافة في 17 جمادى الآخرة سنة 399 هـ، وما كاد يشعر باستقرار أمره، وتمكن سلطانه، حتى أطلق العنان لطغيانه وأهوائه، وجمع حوله بطانة سوء، أخذت تتنكر للناس وتضطهدهم وأبدى الموكلون بالقصر من رجاله نحو البربر بنوع خاص منتهى الشدة والفظاظة، وكان المهدي ورجاله يخصون البربر بالبغض والزراية، وكان أهل قرطبة ينساقون مع المهدي في هذه العاطفة ضد البربر، وبدا سخط المهدي نحو البربر في سوء معاملتهم، ولم يفرق في ذلك بين أصاغرهم وزعمائهم، حتى أن كبيرهم زعيم قبيلة صنهاجة، زاوي بن زيري بن مناد عند مقدمه إلى القصر،

مع جماعة من رجاله، ردوا عند الباب بفظاظة وأهينوا، فانصرفوا وقلوبهم تضطرم سخطاً. (عنان،ع، 1997، الصفحات 642-644)

ولم يزل المهدي واليًا إلى أن قام عليه -يوم الخميس لخمسٍ خلون من شوال سنة 399- هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مع البربر، فانهزم البربر وأسر هشام بن سليمان، وضربت عنقه، واجتمع البربر عند ذلك فقدموا على أنفسهم سليمان بن الحكم بن سليمان، وهو ابن أخ هشام القائم المذكور فنهض بالبربر إلى الثغر، واستجاش النصارى وأتى بهم إلى باب قرطبة، فبرز إليه جماعة أهل قرطبة، فلم تكن إلا ساعة حتى قتل من أهل قرطبة نيف وعشرون ألف رجل، واستتر محمد بن هشام المهدي أيامًا، ثم لحق بطليطلة وكانت الثغور كلها من طَرْطُوشة[(مدينة عامرة على ساحل بحر الروم (مجهول، 1423هـ، صفحة 183)]، إلى الأشبونة باقية على طاعته ودعوته، واستجاش بالإفرنج وأتى بهم إلى قرطبة، فبرز إليه سليمان بن الحكم مع البربر فانهزم سليمان والبربر، واستولى المهدي على قرطبة ثم خرج بعد أيام إلى قتال جمهور البربر، فكانت الهزيمة على محمد بن هشام المهدي، وانصرف إلى قرطبة، فوثب عليه العبيد مع واضح الصقْلبي، فقتلوه وردوا هشامًا المؤيد فكانت مدة ولاية المهدي منذ قام إلى أن قتل سبعة عشر . (المراكشي, ع، 2006، صفحة 40)

ولم تهدأ الفتنة إلا بانقضاء الخلافة الأموية في الأندلس وقيام دويلات ضعيفة مهزومة لا تتناحر إلا فيما بينها ولا تحارب إلا بعضها.

وعن مساهمة أبناء زيري في تلك الفتنة يقول ابن خلدون عن ذلك: « أن زاوي بن زيري كان عميد صنهاجة في الفتنة البربرية وفحل ذلك الشول وكبش تلك الكتائب، عمد إلى البيرة ونزل غرناطة واتخذها دارا لملكه، ولما بايع الموالي العامريّون للمرتضى المرواني عمد إلى غرناطة فلقيهم زاوي بن زيري في جموع صنهاجة وهزمهم سنة عشرين وأربعمائة وقتل المرتضى. وأصاب زاوي من ذخائرهم وأموالهم وعددهم ما لم يقتنه ملك». (ابن خلدون، ع، 1998، صفحة 206)

ويبدو أن البربر قد عانوا من صنوف الظلم والقهر في أيام حكم محمد المهدي، وأهين كبراؤهم ما جعلهم ينتفضون في وجه الدولة، ويعدون العدة لحربها ولو كان ذلك بالاستعانة بالنصارى، وكان زعيمهم في هذه المحنة زاوي بن زيري حالف على عدوه سانشو غرسية أمير قشتالة، وقد أفضت المعارك المتواصلة على هلاك الآلاف من المسلمين من أهل الأندلس عربهم وبربرهم والقضاء على محمد المهدي وحكمه.

3.2 القضاء على المروانية:

يعتبر مقتل الخليفة المرتضى وهو آخر خليفة من بني مروان نهاية لحكم الأسرة المروانية في الأندلس وقضاء عليها إلى الأبد، فلم يحكم بعد المرتضى أحد من هذه الأسرة.

وجاء في حادث مقتله أنه وفي سنة 407هـ بويع عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن عبد الرحمن الناصر وكان أصلح من بقي من بني أمية ولقب بالمرتضى، وما أن علم الخليفة علي بن حمود أن أهل قرطبة يتطلعون للمرتضى حتى غير ابن حمود سياسته تجاههم فبدل اللين شدة، وأذاقهم الذل وأراهم القهر بالظلم والطغيان، حتى كان أن قتلوه وهو في الحمام، وذلك ليلة السبت أول ذي القعدة سنة

408هـ، وقد شجع موت ابن حمود الخليفة الأموي المرتضى على المسير إلى قرطبة إلا أنه عرَّج على غرناطة، فدعى زاوي بن زيري إلى الدخول في طاعته، فرفض طلبه فنشبت بينهما معركة حامية، انهزم فيها المرتضى بسبب خيانة العبيد العامريين وتخليهم عنه في المعركة، وتمت مطاردته وقتل بقرب وادي آش وذلك سنة 409هـ. (الخلف، س، 2003، صفحة 111،115)

ويقول عبد الواحد المراكشي في ذلك: ثم ولي علي بن حمود على ما تقدم، وتسمى بالخلافة، وتلقب بـ الناصر، ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه، وقدموا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، ولقبوه بالمرتضى، وزحفوا به إلى غَرْناطة، وهي من البلاد التي تغلب عليها البربر، ثم ندموا على تقديمه لما رأوا من صرامته وحدة نفسه، وخافوا من عواقب تمكنه وقدرته، فانهزموا عنه ودسوا عليه من قتله غيلة، وخفي أمره. (المراكشي, ع، 2006، صفحة 46)

كان من نتائج هذه المعركة:

تثبيت حكم الحموديين في قرطبة – القضاء على المروانية بشكل نهائي – الحكم بتفوق البربر على الجماعة الأندلسية

4.2 تمصير غرناطة و اتخاذها دار ملك لبني زيري:

لما رأى زاوي ابن زيري احتشاد المروانية بقيادة المرتضى ضدهم، أتى أهل إلبيرة واستفسرهم عن رأيهم، ولما أجابوه بأنهم معه قال لهم زاوي: « إذا كان هذا رأيكم، فأرى من الصواب أن نرتحل عن هذه المدينة، ونختار لأنفسنا فيما يقرب منها معقلا نأوي إليه بأهلينا وأموالنا...»

و اتفق رأي الجميع أن يختاروا لأنفسهم جبلا منيفا و معقلا شامخا، يبنون فيه ديارهم، ويرحلون إليه بقلتهم وكثرتهم ويجعلونه القاعدة، ويخربون له إلبيرة المذكورة... فوقعت أعينهم على بسيط جميل قد جمع الأشجار والأنهار وبصروا بالجبل الذي هو الآن مدينة غرناطة متوسطة للبلد كله، وأن العدو متى نازله لم يطق له حصارا، فشرعوا في بنيانه، وتولى كل امرئ منهم إقامة داره من أندلس وبربر وخربت عند ذلك إلبيرة. (ابن بلكين، ع، 2006، صفحة 31)

وهكذا فإن غرناطة مدينة محدثة استحدثها بنو زيري في بداية حكمهم، وقد بدأ ببنائها زاوي بن زيري، وجعلها قاعدة لسلطانه وعاصمة لملكه. وقبل رحيل زاوي بن زيري إلى العدوة المغربية بسنة، أي في عام 409هـ، لم يكن قد استكمل بناؤها بعد، فأكمل حبوس بن ماكسن بناءها وبناء قصبتها وتحصين أسوارها، ثم زاد في عمارتها ابنه باديس بن حبوس بعده، وكملت في أيامه، وأصبحت مع الوقت مدينة كبيرة مستديرة، وقد بدأ أهل إلبيرة ينتقلون الى مدينة غرناطة منذ سنة 400هـ وقيل منذ سنة 401هـ وقد انتقل منهم أعداد كبيرة في عهد زاوي بن زيري، ثم تحقق انتقالهم الكامل خلال حكم خليفته حبوس بن ماكسن . وهكذا اكتمل بناء غرناطة في عهد بني زيري، واتسعت بسكانها، فعمرت نواحيها بالمباني، وتكونت خارجه أرباض تنوف على العشرة. (طويل،م، 1994، الصفحات 22-26).

3. نهاية حكم بني زيري في غرناطة :

وبعد وفاة باديس سنة 465 هـ، تولى أمر دويلة غرناطة حفيده عبد الله بن بلكين الذي كان حدثاً لم يقو على إدارة البلاد، ففقدت الدويلة ديمومتها واستقرارها وعاد بنو عباد يهاجمون أملاكها، مما أجبر عبد الله على محالفة ألفونسو السادس وترضيته بأموال باهظة، وبدأت أحوال هذه الدويلة تجنح للتفسخ عندما بدأ الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها، فاستقل تميم بن باديس بحكم مالقة وما جاورها، وبدأ صراع بين الأخوين، أهدرت خلاله قوى هذه الدويلة واستمر حكم عبد الله حتى دخول القوات المرابطية غرناطة سنة 483 هـ. (السامرائي، وآخ، 2000، صفحة 237)

كان سقوط طليطلة أول قاعدة إسلامية كبيرة، في يد النصارى في سنة 478 هـ، إيذانا بأن الأندلس أضحت على وشك الفناء، فجنح زعماء الطوائف إلى الرشاد، وجمعت المحنة كلمتهم، فقصدوا (المرابطين) إخوانهم ، وكان المرابطون يومئذ في عنفوان دولتهم. (خطاب، م، 2003، صفحة 92)

وما كان من ابن تاشفين إلا تلبية دعوة الجهاد، وأمر جيشه، فعبروا إلى الجزيرة الخضراء، ولمّا تكامل له جُنْدُه عبرَ هو في السّاقة. ثمّ إنّه اجتمع بالمعتمد. وقد عرض المعتمد عساكره، وأقبل المسلمون من كلّ النّواحي، وبلغ الأدفونشَ الخبرُ فخرج في أربعين ألف فارس، وكتبَ إلى ابن تاشَفين يتهدّده، ثمّ سارَ حزبُ الإسلام وحزبُ الصّليب والتقى الْجَمْعَان بالزّلّاقة من بلد بَطَلْيُوس [(مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنة غربي قرطبة. (الحموي، ي، 1995، صفحة 447)]، فكانت مَلْحمةً كبرى، وهزم الله الأدفونش، بعد استئصال عسكره، ولم يَسْلَم معه سوى نفرٍ يسير وذلك في يوم الجمعة من رمضان سنة تسعٍ وسبعين. وأصاب المعتمدَ جراحاتٌ في وجهه وبدنه، وشهدوا له بالشّجاعة، وغنم المسلمون شيئًا كثيرًا. وعاد ابن تاشَفين إلى بلاده، ثمّ إنّه في العام المقبل، عدَّى إلى الأندلس، وتلقّاه المعتمد، وحاصرا بعض حصون الفرنج، فلم يقدرا عليه، فرحل ابن تاشَفين، ومرَّ بغَرْناطة فأخرج إليه صاحبها عبد الله بن بُلُكِّين تقادُم سَنِيّه، وتلقّاه، فغدر به ابن تاشَفين، ودخل بلدَه وقصره، وأخذ منه ما لا يُحصى، ثمّ رجع إلى مَرّاكش. (الذهبي، ش، 1993، صفحة 267)

عاد أمير المسلمين إلى المغرب وهو علي يقين أنّ وجود ملوك الطوائف معناه ضياع الإسلام في هذه البلاد وأثناء ذلك بلغه توافقهم لقطع المؤن والمدد عن عساكره ومحلاته التي تركها بالأندلس، فساءه ذلك كثيراً، وبلغه أن بعضهم عاد إلى مصادقة الفونسو كعبد الله ابن بلكين، والمعتمد بن عباد نفسه، وكان جوازه إلى الأندلس للمرة الثالثة في أوائلِ عام 483 هـ، واتّسمت حملته بطابع الجهاد، ليتأكد من مواقف ملوك الطوائف، فسار توّاً إلى طليطلة واجتاح في طريقه أراضي قشتالة، ولم يتقدم أحد من أمراء الطوائف، لمعاونته أو السير معه . (محمد، ج، المدينة المنورة، ص 201)

وسار بنفسه نحو مدينة غرناطة واستطاع أن يفتحَ غرناطة بعد شهرين من حصارها واعتقل أميرها، عبد الله بن بلكين الصنهاجي الذي تحالف مع النصارى من أجل أملاكه، ثم أرسله أسيرًا إلى المغرب، واستقرَّ في أغمات بالقرب من مراكش. (الصلابي،ع، 2006، صفحة 117).

خاتمة:

كان لأبناء زيري مساهمات ملموسة على أرض الواقع في الأندلس منذ نزولهم بها، حيث أن الحاجب المنصور استعان بهم في حروبه ضد أعدائه فكانوا خير عون له، فقربهم وأمدهم بما طلبوه، ذلك لما رأى من نجابتهم في الحرب وصبرهم وجلدهم، وقوة بأسهم، ثم كان ما كان من قيام الاضطرابات و الفتن التي ألمت بالأندلس وفيها أدلى بنو زيري بدلوهم وكانوا كباشها والمقدمين فيها.

كما أنهم كانوا حطب النار في الفتنة البربرية، استطاعوا أن ينتصروا في معارك عدة، جعلت منهم مهابي الجانب يحسب لهم الكل ألف حساب .

ثم كان أن استأثروا بجهة إلبيرة، وقاموا ببناء غرناطة وتمصيرها واتخاذها عاصمة لملكهم وذلك سنة 403هـ وكانت دولتهم إحدى دول الطوائف. التي قامت في غفلة من الشعور بالانتماء لخلافة واحدة هي الخلافة الإسلامية.

ولم تعمر دولة بني زيري طويلا حيث سقطت على يد الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين وذلك 483هـ وذلك في عهد أميرها عبد الله بن بلقين آخر أمرائها.

والملاحظ أن تاريخ بني زيري في الأندلس، لايزال البحث فيه بكرا، لم يكتمل والمعلومات عنهم شحيحة، يلزمه جهد حثيث . لذلك أوصي الباحثين خاصة منهم المغاربة ببذل جهد أكبر لنفض الغبار عن تاريخ هذه الأسرة وكشف كل ما يتعلق بها. خاصة ما تعلق بتاريخهم في الأندلس، وتاريخ دولتهم هناك.

**-قائمة المصادر والمراجع:

*ابن الأثير، أ. (1997). الكامل في التاريخ (الإصدار 1، المجلد 1). (عمر عبد السلام تدمري، المحرر) بيروت: دار الكتاب العربي.

*ابن بسام، ش. (1981). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (الإصدار 1، المجلد 1). (إحسان عباس، المحرر) ليبيا، تونس: الدار العربية للكتاب.

*ابن بلكين، ع. (2006). التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة (الإصدار 1). (علي عمر، المحرر) القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

*الحموي، ي. (1995). معجم البلدان (الإصدار 02). بيروت: دار صادر.

*الحميري، أ. (1980). الروض المعطار في خبر الأقطار (الإصدار 02). (إحسان عباس، المحرر) بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة.

*ابن خاقان، ف. (1989). قلائد العقيان. (حسيت يوسف خربوش، المحرر) الزرقاء، الاردن: مكتبة المنار.

*خطاب، م. (2003). قادة فتح الأندلس (الإصدار 1، المجلد 2). منار للنشر و التوزيع.

*ابن الخطيب، ل. (1973). الاحاطة في أخبار غناطة (الإصدار 2). (محمد عبد الله عنان، المحرر) القاهرة: مكتبة الخانجي.

*ابن خلدون ع. (1998). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (الإصدار 2، المجلد 6). (خليل شحادة، المحرر) بيروت: دار الفكر.

*الخلف، س. (2003). نظم حكم الامويين ورسومهم في الاندلس (الإصدار 1). المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الاسلامية.

*الذهبي، ش. (1993). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (الإصدار عمر عبد السلام التدمري). بيروت: دار الكتاب العربي.

*السامرائي، وآخ. (2000). تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس (الإصدار 1). بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

*ابن سعيد،أ. (1995). المغرب في حلى المغرب (الإصدار 3). (شوقي ضيف، المحرر) القاهرة: دار المعارف.

*الصفدي، ص. (2000). الوافي بالوفيات (الإصدار د.ط). (أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى، المحرر) بيروت: دار إحياء التراث.

*الصلابي،ع. (2006). فقه التمكين عند دولة المرابطين. القاهرة: مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة.

*طويل،م. (1994). مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (الإصدار 1). بيروت: دار الكتب العلمية.

*ابن عذاري، م. (1983). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (الإصدار 3، المجلد 1). (ج.س.كولان، إ.ليفي بروفنسال، المحرر) بيروت: دار الثقافة.

*عنان،ع. (1997). دولة الاسلام في الاندلس (الإصدار 4، المجلد 2). القاهرة: مكتبة الخانجي.

*القزويني،ز. (بلا تاريخ). آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت: دار صادر.

*مجهول. (1423ه). حدود العالم من المشرق الى المغرب. (يوسف الهادي، المحرر) القاهرة: الدار الثقافية.

*محمد، ج، المدينة المنورة، ص 201. (بلا تاريخ). الزلاقة معركة من معارك الإسلام الحاسمة في الأندلس. المدينة المنورة: الجامعة الاسلامية.

*المراكشي, ع. (2006). المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس الى آخر عصر الموحدين (الإصدار 1). (صلاح الدين الهواري، المحرر) بيروت: المكتبة العصرية.